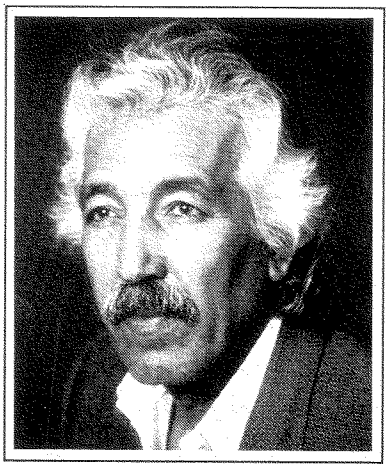

محمد القيسي

عام ١٩٧٦ نشر الشاعر محمد القيسي في **الآداب** قصيدته «الصمت والأسى»، قبل أن يضمّها في باكورته **راية في الريح** الصادرة عام ١٩٦٨. وقد كتب رجاء النقاش عن هذه القصيدة في العدد التالي من **الآداب**، مبشراً بميلاد موهبة عربيّة جديدة: «مَنْ هذا الفتى الفلسطيني الموهوب؟ من أين جاءَ يحمل إلينا في هذه القصيدة كُلَّ هذا الحزن الحزين، وكُلَّ هذه الأصالة الفنية؟.. إنّ هذه القصيدة... تكشف عن موهبة كبيرة، ولعلّها تكون شهادة ميلاد– على حجر المأساة العربيّة– لشاعر كبير حقاً. في هذه القصيدة هزّني استخدام الشاعر للأغاني الشعبيّة.. استخداماً جميلاً رائعاً. إنّ اختيار الشاعر للفقرات التي اختارها من المواويل الشعبيّة هو، في حدّ ذاته، موهبة ذات حساسية وذوق. وفي القصيدة فيْضٌ من الغنائية السهلة الحلوة التي تحمل القلب معها إلى وجه مياه نقيّة شفافة، إلى جوهر التجربة الإنسانية...».

الصمت والأسى

«آه ليمهلني الموت
حتى أصير في قرطبة
قرطبة
البعيدة، الوحيدة»

لوركا

ولو أنَّ الطريقَ إليكِ مَيسورُ
لما وَهُنتْ خطاي، وسُمِّرَتْ نَظَرَاتي اللَهفى وراء البابْ
ولا سَهُدَتْ عُيونك في انتظارِ زيارةِ الأحبابْ
ولا ما بينَنا حالَ العِدى والموتُ والسُورُ.

ولكنَّ الثعالبَ في ربوعكِ تزرعُ الأهوالْ
وتغتالُ ابتسامَ الصُبحَ فوقَ مباسمِ الأطفالْ
«يا دارْ، يا دارْ، لو عدنا كما كنَّا
لإطليك يا دارْ، بعد الشيدْ بالحنَّا[1]».

(١) من الشعر الشعبي الفلسطيني

ذاكرة الآداب - ٧ -

مُعتَّقةٌ جرارُ الحُزنِ منْ عشرينَ في قلبي
أشيلُ عَذابَها المَوروثَ في رُوحي وفي هُدْبي
ولا أسْطيعُ إفلاتاً ونسياناً
وتَصْفَعني عيونُ الغيرِ في المَنفى تُعرِّيني

تُشيرُ إليّ:
– أينَ تروحُ، أيَّ هَويَّةٍ تحملْ؟
.....؟
– فلسطيني، أجلْ إنّي فلسطيني
هَوِيَّتيَ العَذابُ يَظلُّ مصلوباً على وَجهي وَيُدنيني
مِنَ الينبوعِ في وطني، هُناكَ «بكفر عانة»[٢] وَجهيَ
المفقودُ دربيَ المزروعُ بالنَظَراتِ والعَتْمه
وأعبُر دونما كِلْمه
أَلوذُ بِصمتيَ المشحونِ بالمأساه
وأَحضنُ حُزنيَ المَوَّارَ، أَركنُ للأسى الخَلاَّقِ يبعثُني
ويُزهرُ في غَدٍ حقلاً مِنَ البَسَماتْ
أُذيبُ به عذاباتي
وَتَرحلُ عن فمي مُرُّ الحِكاياتِ
وَتحملني الرياحُ على مُتونِ الشَوقِ للأحبابْ
أُعانقُ طِفلةَ الفَجرِ الجديدِ وأَطبعُ القُبُلاتِ فوقَ جَبينِها القَمحي
وَأشدو غُنوةَ الفَرحِ
ولكنْ آهِ.. مُوصَدَةٌ هيَ الأبوابْ:
ويأتي صوتُ والدتي العَجوزِ مُبَلَّلاً بالحُزنِ والأملِ:
«بالله يا طير الحي إن جيتْ دارنا
ريِّضْ ألا يا طيرنا وارتاحْ
قل لها بحالِ الجَهلْ يا طُول عزنا
يا ما قعدنا ع الفراشْ صحاحْ
يا من درى يصفى زماني وأعاتبه
وأعاتبه باللي مضي لي وراحْ[٣]».
وَيَزدادُ الحنينُ ويقطرُ المَوَّالُ أشجانا

مَتى يَصفو الزمانُ يعودُ كلُّ مُتَشَرِّدٍ لترابِ أوطانِه؟
يُقبِّلُه، ويَجثو في اخضرارِ الجُرحِ فوقَ قبورِ مَنْ ماتوا،
يقول لهمْ:
لقد عُدنا فلا تبكوا على الأحياءْ
عَبرنا الجسرَ لم نَحْلُمْ ولَمْ نَقعدْ بِصَحْنِ الدارِ نَستجدي،
وَنرقبُ رِزقةَ الفُقراء.
مَتى يَصفو...؟
مَتى يَصفو...؟
أُهاجر في العيونِ أُطالِعُ الحِرمانْ
«يا دارْ.. يا دارْ.. لو عدنا...»

لئنْ نامتْ على شُرُفاتِكِ الأحزانُ، غَنَّى طائرُ الأَلمِ
يَظلُّ هواكِ نَبضَ دَمي
وَإنْ هَدَموا الجُسورَ إليكِ، أبحَرتِ المراكبُ عنكِ للمنْفى،
فأنتِ مَعي
فأنتِ مَعي
وَإنْ سيقَ البَنونُ، مَواكباً لِلسَّبْيِ يا وطني
وَإنْ هاموا بِصَحْراءِ الدُجى والتيهِ والشَجَنِ
وإنَ طُعِنوا بسكينِ الطَوى في عَتمةِ اللَّيلِ
وإنْ نُهبتْ مَواسمُنا بلا عدلِ
وإنْ طالتْ حِبالُ النَفيِ والبَينِ
فلنْ ننساكَ، لنْ نَنساكَ، يا وطني
فمازالَ الوميضُ يَشعُّ في الأحداقْ
وميضُ الرَّفضِ والإصرارِ وَالثوره
ومازالَ المُشرَّدُ في الطريقِ إليكَ يا حُلُمي، وَلنْ يُثنيه
عذابُ الغُربةِ المُرَّهْ
لأنَّكَ فيه أَنْتِ الرُوحُ، أَنتَ الوَهْجُ وَالفِكرَهْ!

عمان/١٩٦٧

(٢) قرية الشاعر في فلسطين المحتلة.
(٣) من الشعر الشعبي الفلسطيني.